

المنهج الاستنباطي باستخدام الجينياالوجيا في تفسير النصوص الدينية

د. عبد علي سفيح

فرنسا/ أستاذ وباحث أكاديمي في وزارة التربية والتعليم الفرنسية

alaineli_soyer@hotmail.com

الملخص:

تفسير النصوص الدينية يحتل موضوع الصدارة والاهتمام منذ بدايات النهضة الفكرية في الفكر الاسلامي، وان كانت هناك قراءات معاصرة للنصوص الدينية الا انها بقت بعيدة عن الحداثة. القرآن الكريم هو مصدر ثقافة هذه الأمة الاسلامية وتراثها بكل أطيافها وأشكالها وأزمانها. استخدمت مناهج عديدة في تفسير النصوص الدينية ، وظهرت مدارس عديدة الا ان هذه المناهج والطرق لا زالت قديمة ولم تحدث. هذه المناهج والوسائل لا تكفي لكشف المعنى الباطني للنصوص الدينية. في أوروبا وجد علماء الاجتماع والتاريخ والفلسفة طرق ووسائل حديثة لتفسير الظواهر التاريخية والانسانية ومنها في بدايات القرن الماضي هي الجينياالوجيا. يعرف الجينياالوجيا هو علم المنشأ أو علم الأنساب. هنا تعطي معنى آخر في البحوث الانسانية وهو الاعتقاد بأن الأشياء في بداياتها كانت كاملة واما الزمن أو الوقت يلعب دورا في اظهارها. هذه الوسيلة البحثية استوحيت من فلسفة نيتشة، وسماها بجينياالوجيا التاريخ. هذه الوسيلة تسمح للفلسفة أن تلتقي بالتاريخ، أي هي تاريخ الحقيقة وليست حقيقة التاريخ، ودين الحقيقة وليس حقيقة الدين، ودين التاريخ وليس تاريخ الدين. الجينياالوجيا استخدمها فلاسفة وعلماء فرنسيين بعد منتصف القرن الماضي ومنهم فوكو، دولوز، دريدا ونانسي لفك هيمنة التاريخ على الفكر والعقل البشري.

أخذت في هذا البحث نموذجا بحثيا لظاهرة تاريخية دينية وهي نشأت التشيع وطبقت واستخدمت الجينياالوجيا في فك رموز هذا الموضوع الشائك المعقد لأن استحضار الماضي باعتباره مجموعة من الوقائع قد حصلت في زمان ومكان محددين ومحورها الانسان، فاستحضاره ليس عملية سهلة لأن ذلك يقتضي في توفر نهج خاص يعيد بناء الظاهرة التاريخية. وحصلنا على نتائج تفتح بابا لأبحاث مستقبلية.

المقدمة:

البحث العلمي في وقتنا الحاضر أصبح واحدا من المجالات الهامة التي تجعل الدول تتطور بسرعة هائلة وتتغلب على معظم المشكلات التي تواجهها بطرائق علمية حديثة ومتطورة والتي لا تعتمد فقط على النقل والتكرار بل على الاسلوب الذي يتوخى الحقيقة من ميدان الحياة اليومية وبالنتائج المادية الملموسة.

البحث العلمي هو نشاط انساني لا غنى للفرد والمجتمع عنه، والبحث يشير الى الجهود المبذولة لاكتشاف معرفة جديدة، ومهمة البحث هو التحقق من موضوع معين بصورة منتظمة ومنهجية.

ومنها تبدأ عوامل النهضة عند أي شعب من الشعوب بالاهتمام بالماضي وكشف حقائقه وربطها بحاضره.

والفكر الحدائي والبناء المعرفي في المجتمعات الغربية قائم منذ أكثر من ثلاثة قرون وهناك إنتاج يومي وتراكم علمي مستمر. و منذ قرون بنيت سياسة للثقافة والتنقيف و ثم بنيت مؤسسات لتطبيق هذه السياسة مما أدى هذا التطور الى تغيير مناهج الكتابة التاريخية وقراءة النصوص بصورة عامة ومن ثم تغيير الاسئلة التي يطرحها الباحث أو المفسر. وكذلك أدت هذه الثورة العقلية الى بناء مشاريع نهضوية والتي اهتمت في اعادة قراءة أو اعادة النظر في التفاسير والشروحات الموجه للنصوص المكتوبة وخاصة النصوص الدينية. وقد استعان المهتمون في هذا الحقل بتقنيات وآليات حديثة مثل السيسولوجي (علم الاجتماع) وخاصة علم الاجتماع الديني، والانثروبولوجي (علم الانسان)، والفيلولوجي (منهج التأريخ النقدي) أخيرا الجينولوجي (علم النشأة أو علم التكوين). هذه المناهج والآليات البحثية في عام ١٩٦٠-١٩٧٠ من القرن المنصرم كانت لهذه العلوم ازدهار كبير واستثنائي في فرنسا، وكان الغرب يدعو المفكرين الفرنسيين في جميع العالم لتوضيح هذه المناهج والآليات مثل منهج الحفر الفكري لفوكو ومنهج التفكيك للخطاب لدريدا. وأما في الدين الاسلامي، فبتنوع تعبيراته الثقافية وتجلياته التاريخية يبقى على غرار الأديان الأخرى باستثناء المسيحية، اذا طبقت العلوم الاجتماعية والمناهج الحديثة تطبيقا مناسباً فانها سوف تكون تحدياً للمسلمين. لأن هذه المناهج الحديثة وآلياتها بنيت على أساس النقد العلمي للعقل الديني. بينما الفكر الحدائي الاسلامي للمناهج قد تألق في القرن الثالث والرابع الهجري أي في جيل مسكويه والتوحيدي وذلك بالجمع بين شتى أجناس العلوم والفنون والفلسفة والتأريخ وكذلك منهم بن قتيبة الذي بادر الى وضع منهاج منذ القرن الثالث للهجري في مؤلفه المعروف ب(أدب الكاتب). ثم أبدع مسكويه في ممارسة هذا المنهج بكتابه الموسوم (الهوامل والشوامل) والذي يحاور فيه التوحيدي حول مسائل فكرية هي في غاية التجريد والرقى. وليس أدل على انشغالي في هذه المناهج الحديثة في منتصف التسعينات من القرن المنصرم هو اعدادي اطروحة دكتوراة في فرنسا في التأريخ والفلسفة تحت عنوان (علي بن أبي طالب امام وخليفة). ويحاول الباحث في بحثه هنا فهم النصوص الدينية، أي نصوص القرآن الكريم، حيث أن تأريخ الأمة الثقافي والحضاري والفكري والجهادي والاجتهادي تمحور حول النصوص القرآنية. ولذا، لقد ولدت اتجاهات مختلفة في فهم النصوص القرآنية واستنباط المعاني منها، فمنهم استخدم المنهج الظاهري، وآخر استعمل المنهج الباطني، وآخر استعمل المنهج العقلي أو القياسي، والسواد الأعظم استعمل المنهج النقلي في تفسير القرآن ومن ضمنها التفسير بالأثر أو تفسير القرآن بالقرآن ، تارة بعضهم يعطون الأولوية للغة والبلاغة، وتارة للجانب التاريخي أو القصصي. وعليه فاشكالية البحث تكمن في التجاذب بين

الظاهر والمعنى والذي برز في شكل مبكر في تأريخ الفكر الاسلامي والذي أدى الى ظهور تلك الاتجاهات المختلفة، ومنه استعمل النص الديني في نصرة بعض الاتجاهات الفكرية. ولكن المنهج الأكثر شيوعا هو الظاهري النقلي باستعمال الوسيلة التجزئية في تفسير النصوص القرآنية والتي تتسم بالمحافظة على ظواهر النصوص ومعانيها والجمع بينها في اعتدال. هذا المنهج يرفض القياس وسائر أوجه الرأي. وفي العلوم الانسانية في منتصف القرن العشرين وجد العلماء بأن النهج الاستنباطي لا يكفي لكشف بعض الاسرار وهي قاصرة على ان تكشف الحقيقة. فحدثت ايضا طفرة وهي ايجاد وسيلة جديدة في تفسير الظواهر التاريخية والانسانية ضمن المنهج الاستنباطي وهي **الجينياولوجيا** مع علم الاجتماع الديني. والجينياولوجيا هي علم المنشأ أو علم الانساب. لكن هنا تعطي معنى آخر. أي هي ردة فعل ضد كل تأريخ تكويني. **الجينياولوجيا** ليست شجرة الانساب، وليست تأريخا تكوينيا تطوريا، فهو اعتقاد بأن الاشياء في بدايتها كانت كاملة فانها ترى وراء الاشياء التي تنظرها شيئا آخر.

الجينياولوجيا هي أصل الاشياء أي اللحظة التي تحددت فيها الخصائص وتعينت فيها الهوية، اللحظة التي أتخذت فيها الاشياء صورتها الثابتة التي تسبق كل ما سيعرض وسيتعاقب (١).

وهذه الوسيلة للبحث استوحيت من فلسفة **نيتشة** وخاصة من كتابه **جينياولوجيا الاخلاق** في عام ١٨٨٧.

وأما الفيلسوف الفرنسي فوكو كتب مقالا شهيرا سماه **نيتشة: جينياولوجيا والتأريخ**.

هذه الوسيلة البحثية تسمح للفلسفة أن تلتقي بالتأريخ، وهو عدم القفز على الواقع من خلال انشاء مفاهيم مجردة تولد عالما ينوب عن العالم الحقيقي. أي هي تأريخ الحقيقة وليست حقيقة التأريخ، ودين الحقيقة وليس حقيقة الدين، ودين التأريخ وليس تأريخ الدين. أي الاحداث التاريخية تجد تفسيرها الحقيقي في تحديد طبيعة الحقيقة (٢).

فوكو (٣)، ودولوز (٤)، ودريدا (٥)، وجان لوك نانسي (٦) وغيرهم حاولوا استعمال هذه الوسيلة البحثية لفك هيمنة التأريخ على الفكر والعقل البشري. والتي يمارس فيها التأريخ على الفكر البشري وسلوكه ووظيفة قمعية بديهية، لأنه يفرض على فكر الانسان شرعية وكل ما هو متداول في التأريخ هو معيار الحقيقة.

هذه الوسيلة أي **الجينياولوجيا** حققت نجاحا معتبرا وكبيرا في دراسة النصوص على اختلاف أنواعها أشكالها المعرفية في حقول العلوم الانسانية المختلفة في أوروبا والعالم الخارجي. يمكن استعمالها في تفسير الظواهر القرآنية لانها خارجة عن مساحة التأريخ والذي بسببه ولد هذا الانقسام الطائفي

والذي يعاني منه جسد الأمة الإسلامية منذ فترة ليست بقصيرة. وتوضيح هذا المنهج بصورة سهلة وبسيطة، سوف آخذ نموذجاً بحثياً لدراسته كمثال وبعنوان (نشأة التشيع والشيعية). وسوف يتم البحث في هذا الموضوع من مساحتين وبمنهجين مختلفين.

الأول وهو المنهج المعتاد عليه وهو الاستقرائي ومن المساحة التاريخية، أي التشيع كظاهرة أو كحدث تاريخي ولدته الأحداث.

والثاني هو المنهج الاستنباطي باستخدام **الجينيولوجيا** ومن مساحة القرآن، أي لعلقة لها لا بالزمان ولا في المكان ولا بشخص. فالتشيع هنا عقيدة مثلها مثل عقيدة الايمان في اليوم الآخر وعقيدة الايحاء عن طريق الملائكة، وسوف نقارن النتائج الحاصلة من المنهجين . الا أن واضعي هذه الأداة البحثية استخدموها لكشف العلاقة بين العالم المرأى والعالم غير المرأى لا بالمعنى الغيبي أو اللاهوتي، بل بأصل القيم ومن أين نبعت وتطورت . هذه الوسيلة البحثية وان بنيت على فكر الفيلسوف الألماني **نيتشه** الا انها أخذت حيزاً كبيراً بعد الحرب العالمية الثانية حيث قالوا أن الحرب العالمية الأولى كانت وليدة جنين تكون في القرن التاسع عشر وأن الحرب العالمية الثانية هي وليد لجنين تكون في بداية القرن العشرين. الجينيولوجيا تبحث عن الجنين في بداية تكوينه ومنه يمكن اما اجهاضه أو مساعدة تكوينه.

أما **سيسيولوجيا الديني**، هذه الوسيلة ساعدتني على البحث عن تأثير المنظومات الدينية على المجتمعات التي تشكلت عبرها، والعكس أيضاً (مثال تأثير أهل الكتاب على معتقدات العرب وتأثير واقع قريش الاجتماعي على عبادة الاصنام). ثم تحليل مظاهرها التعاونية وأيضاً مختلف أصناف تآزرها (مثال تآزر اليهود مع قريش)، وكذلك توضيح من خلال هذا البحث المعنى السيميولوجي (علم الاشارات و العلامات والرموز) لمختلف أشكال التعبير الفكري للنصوص الدينية، وهو ضمن المنهج البنوي (منهج تفكيك النص ثم تركيبه) وقد استخدمته في تفسير (أهل البيت والتشيع والحنفية). وهذا لايعني باننا نضع جانبا المسائل الغيبية، وان نقصر على المسائل المثارة من جراء دراسة التفاعلات الثنائية بين الدين و **السيسيولوجي**. فرغم قناعتنا بأهمية المقاربة **السيسيولوجية** ولكننا لا نعتبرها أبداً المفتاح الوحيد الذي يسمح بفهم الظاهرة الدينية مثل التشيع والحنفية وآل. أحيانا الفكرة الدينية تكون غالبية على الاصل الاجتماعي مثلاً في حالة الحنفاء، أما في حالة التشيع والشيعية فالفكرة الاجتماعية هي غالبية على الفكرة الدينية. في هذه الدراسة سوف نبين هل الظاهرة الدينية هي انعكاس لحالة تاريخية واجتماعية أم بالعكس أي الحالة الاجتماعية والسياسية هي انعكاس لظاهرة دينية. هنا استعملنا منهج واش (٧) بتحليل كل ظاهرة دينية باعتبارها في نفس الوقت بمثابة الانعكاس وكذلك بمثابة المثال بحسب مستوى التساؤل الذي يطرح

في ظرف معين. فالظاهرة الدينية هي معا المثال الحي لتحقيق نموذج ما كما في حالة التشيع والحنفية، والانعكاس أيضا لحالة اجتماعية وسياسية معينة .

الهدف من البحث هو قراءة حديثة للنص الديني والتراث الاسلامي وذلك باستخدام منهجيات ووسائل حديثة لا تلغي التراث بمقدار ما نستفيد منه. وهذه المناهج والوسائل سوف تفتح للمهتمين بدراسة النصوص الدينية آفاقا جديدة، وفهم أفضل للمحتوى الموضوعي لرسالة القرآن الكريم واستمداد الرؤية والحكمة من النص القرآني الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان. هذه المناهج الحديثة سوف تغير الاشكاليات لأن دراسة النصوص الدينية تدفع الباحث الى أن يأخذ بعين الاعتبار جميع المستويات الحياتية في ذلك المجتمع والجمع بين الثقافة واللغة والتأريخ واللغة والتأريخ والسياسة، أي الأخذ بنظر الاعتبار كل القوى التي تعمل تأريخ المجتمع. هو اسلوب جديد لتفسير النصوص الدينية.

وكذلك توسيع زوايا النظر وتنويع مستويات التحليل والكشف عن الاسئلة المطموسة في الفكر الاسلامي عبر المساهمة التامة للانجازات الانثروبولوجيا الدينية والفيلولوجي (علم اللغة المقارن في أساس فقه اللغة المقارن).

أما الهدف الآخر وهو: طيلة الثلاثين سنة الماضية والباحث في فرنسا، كان يتابع كل ما يحدث في بلادنا الاسلامية وخاصة في العراق الحبيب أكثر مما أساهم. ومتابعة المؤتمرات والندوات والملتقيات سواء في لندن أو في العراق أو في باريس وكان يحضر في هذه المؤتمرات والملتقيات علماء مسلمون من جميع أنحاء العالم. في هذه الملتقيات وجدت المسلمين يستخدمون الفكر الاسلامي كوسيلة ايديولوجية أكثر من وسيلة علمية لدراسات علمية لحل المشاكل المستعصية في مجتمعاتنا والتي تنخر جسم الأمة الاسلامية مثل الطائفية، والعنف ، لذا فاستخدام الوسائل الحديثة في كشف سر النصوص الدينية تساعدنا على تفكيك بنية الخطاب الايديولوجي وانتقاله الى خطاب معاصر مبني على مناهج حديثة.

أما الاشكاليات البحثية الاولى: كانت ولا تزال تتمحور حول كيفية العودة الى ينباع الأولى للتلقي منها، وعدم التوقف عند حدود السواقي، ذلك الواقع الذي نعاني منه دليل على عدم جدية وسائلنا المنهجية وطرائقنا في التعامل مع نصوص القرآن، الذي أنتج خير أمة أخرجت للناس. وما لم نتملك القدرة والادارة لابتكار وسائل وأدوات منهجية حديثة تساعدنا على فهم النصوص الدينية بشكل أفضل وهذا لا يعني بحال القفز فوق الواقع والتراث للتعاطي مع النص بدون امتلاك الأدوات السليمة، وانما العودة الى فهم النص من خلال استيعاب المفهوم جميعا. ولعل هذا من المخاطر الفكرية، أو من الاصابات الفكرية البالغة في التعاطي مع النصوص المقدسة، لأن المؤرخين القدامى

للتأريخ الاسلامي كانت السياسة تسيطر على أعمالهم، فبالغوا الاهتمام بأحداثها ورجالها ومغامراتها العسكرية، وركزوا على الفرد، وتصوير التأريخ كأنه تأريخ أفراد منعزلين عن بيئتهم ووسطهم، عوض الاهتمام بالمجتمع وبالفرد داخل المجتمع. وهي صورة من علل التدين التي لحقت بالامم السابقة، والتي حذر منها القرآن الكريم حتى لا تتسرب الى أمة الرسالة الخالدة.

أما الاشكالية البحثية الثانية: حيث لا يمكن نقل مناهج ووسائل من فكر غربي الى فكر شرقي دون أن نكون على علم بالمناهج التي تأخذها من الثقافة الغربية. العلوم الاجتماعية المعاصرة والمناهج الحديثة ومنها منهج الحفر لفوكو ومنهج التفكيك والبناء لدريدا هذه المناهج تعتبر الدين عبارة عن ظواهر ثقافية وليست غيبية. لذا ولدت هذه المناهج والأدوات البحثية أساسا لنقد العقل الديني لأن العقل حسب تصورهم يميل دائما الى الايديولوجيا. والمجتمع يدفعه أن يميل الى ذلك. لذا وضعوا مفهوم الابستمولوجي المعاصرة (أي علم المعرفة المعاصر) لأن الانسان خطأ. ويجب لأن لا ننسى أن العقل الغربي وخاصة العقل العلماني لا يدرك وظائف الرمز والدلالة ولا يعبر أي اهتمام للظاهرة الدينية ولا تدرك وظائف القصص والرمز والعلامة والمجاز في توليد المعاني وبالتالي في توليد كل أنظمة الدلالة التي يفسر الانسان بواسطتها العالم. وبما اننا نملك الرؤية الأنثروبولوجية التي تعتبر أن النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي مشتق من الأنظمة المعنوية والمزية والسيمائية (علم العلامات) التي تتحكم بالحاسية الفردية والجماعية وكذلك ندرك عجز الحداثة للتوصل الى حل نهائي للمسائل الانسانية الجذرية التي تتعلق بالمعنى والقيمة والعدالة والمقدس والرغبة في الخلود. في هذا البحث ندعو الى التوافق والتزواج بين المناهج والوسائل الحديثة والانثروبولوجيا الاسلامية التي مصدرها القرآن الذي أساسه ذو بنية قصصية ورمزية، قوله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) سورة يوسف: ٣؛ وقوله تعالى: (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب وحققناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً) سورة الكهف: ٣٢. لذا استخدمنا هذه الأداة المعرفة بالجينيولوجيا في تفسير الظواهر القرآنية حسب عقيدتنا وفلسفتنا للحياة غير المجردة من الوجود الغيبي.

المبحث الأول: كيفية قراءة النصوص بصورة عامة

أولاً: مفهوم النص القرآني عند المسلمين: مفهوم مصطلح النص عند علماء المسلمين القدامى وخاصة الأصوليون، فقد كان لمصطلح النص عندهم مفهوم آخر. فتحدثوا في النص بعبارات كثيرة أشهرها ما ذكره الشافعي (ت ٢٠٤هـ) بأنه: هو المستغني بالتنزيل والتأويل. هو الكلام الذي لا يحتمل التأويل والتفسير لأن ظاهره يغني عن كل ذلك، والذي أبانه الله لخلق نسا ظاهراً بينا (٨

(. وهذا التعريف لقي قبولا حسنا عند كثير من العلماء في ذلك العصر ومنهم أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) وغيرهم، ولم يخالفوه الا في بعض الجزئيات. (٩). بينما نرى أن بعض العلماء في شرح النصوص لم يتوقفوا عند التنظير للجملة وشرحها ومنهم عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) في نظرية النظم في كتابه (دلائل الاعجاز) ، حيث تبرز قيمته النصية في أنه جمع بين علوم كثيرة كالنحو وعلم المعاني وعلم البيان والتفسير ودلالة الألفاظ، والمعجمية والمنطق، وألف بين أشتائها في انسجام كبير وكان هدفه الأساس هو خدمة النص القرآني وبيان اعجازه (١٠). أما جمهور علماء الفقه، ولا سيما الذين بحثوا في حقل دلالات الألفاظ ومعاني الأساليب وما يترتب عليها من قواعد وأحكام، وتعرضوا للثنائيات الدلالية التي وضعوها تحت عناوين مختلفة: العام والخاص، المطلق والمقيد، المجمل والمفصل، المحكم والمتشابه، وهذه الثنائيات تشمل الشروط الجوهرية والوظيفية والمعرفية للنص القرآني. أما الصنف الآخر من المفسرين للنصوص القرآنية والذين قاموا بجهود مضمينية في تحليل النص القرآني كل على طريقته، فقد سلكوا في فهمه طرائق منهجية شتى ومنها: التفسير حسب المنهج الروائي، وهذه كانت طريقة المتقدمين في التفسير لمعرفة المراد من الآيات، وكان الجميع يعتني بالرواية ونسبة الأقوال التفسيرية الى من قالها، ولكن ذلك كان متفاوتا بينهم فظهر من اعتنى بالرواية اعتناء بالغاً حتى حتى اطلق على تفاسيرهم التفسير بالمأثور وعلى رأسهم الطبري. وهناك من جمع بين هذا التفسير والتفسير العقلي وعلى رأسهم الزمخشري في تفسير الكشاف والذي يميل لمدرسة المعتزلة. اما حديثاً فجل المفسرين يستخدمون المنهج النقلي باختلاف وسائله مثل تفسير القرآن بالقرآن ومنهم قديماً السيوطي، وحديثاً سيد قطب والسيد الطباطبائي وان يضيف هذا الأخير المنهج الباطني لها. هذا النهج وهو تفسير القرآن بالقرآن، حالياً يسمى بالمنهج السياقي في علم الدلالة وهو المنهج الذي جعل للسياق الدور الحاسم في فهم النصوص وتحديد معاني الألفاظ وضبط دلالاتها. وأن علم الدلالة هو علم يدرس الألفاظ ويخرج معناها ولذلك يدرس النص متكاملًا ويخرج معناه والقصد منه. وطور الانكليز هذا المنهج وسموه (داتا مينينيك) أي التنقيب عن أولوية ضرورية فقدت في المعنى العام للنص ولذا نحتاج الى عملية تنقيب. مثال على ذلك كلمة (آل) في القرآن والتي كان لها معنى عميق وألوية في الرسالة الاسلامية الا انها فقدت معناها الحقيقي مما أدى الى فقدان السياق العام للنصوص القرآنية، يتم شرحها بالتفصيل في المبحث الثاني. وأتفق علماء اللغة المعاصرون على أن علاقة الكلمة مع الكلمات الأخرى في النص والخطاب هي التي تحدد معناها، وصرح زعيم المدرسة السياقية فيرث بأن المعنى لا ينكشف الا من خلال تنسيق الوحدة اللغوية (١١)، أي وضعها في سياقات مختلفة، وعليه فان دراسة دلالات الكلمة يتحدد وفق السياقات التي ترد فيها (١٢)؛ وأول من تنبه الى دور السياق في تحديد دلالات الألفاظ القرآنية وتفصيل مجملها

وتخصيص عامها هو الشافعي، ولعله هو أول من استعمله من علماء المسلمين القدامى استعمالاً اصطلاحياً وليس لغوياً، وأحسن استثماره كأداة لا سيما في التفريق بين نمطين هامين تعبر عنهما الثنائية الدلالية (١٣). هذا المفهوم قد لا ينسجم مع كثير من الآيات القرآنية، لأن القرآن نزل منجماً حسب القصة والحدث، وبعض الآيات، وفي الآية الواحدة أيضاً يختلف السياق أول الآية عن آخرها كما في آية التطهير، ففي البداية تحدث القرآن عن نساء النبي وفي الوسط خص أهل البيت فقط مع ان الآية واحدة.

وقال جلال الدين السيوطي في هذا المجال: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في موضع فقد فسر في موضع آخر (١٤). وهذه إشارة واضحة للسياق العام للنص القرآني، وهو الاجراء الذي تسميه المناهج الحديثة (بالرؤية المنبثقة) وهذا يقتضي ان المعنى أو الدلالة ينبثق من داخل النص ولا يفرض عليه من الخارج. ومن أخذ بالمنهج السياقي في التفسير جمع من المفسرين وفي مقدمهم ابن جرير الطبري، وفخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب، والزمخشري في تفسير الكشاف، ومحمد ابن الطاهر ابن عاشور في تفسير التحرير والتوير وسيد قطب في تفسير في ظلال القرآن وكذلك السيد محمد باقر الصدر في تفسيراته لبعض الآيات القرآنية، حيث أخذوا هؤلاء بالجمع بين الرواية والدراسة، فهم يسردون الأقوال ويناقشونها ثم يستنتجون، غير ان السيد محمد باقر الصدر انفرد باعطائه أولوية كبيرة للتفسير الموضوعي للقرآن ودعا اليه بقوة وحجة على المنهج الترتيبي المعهود بين المفسرين. ومما يؤخذ على مفسرينا وعلمائنا انهم لا يلتزمون بالسياق دائماً بالرغم من استخدامه في التحليل، اذ لم يكن السياق هو الاداة المنهجية المهيمنة بل كانت تزامها أدوات أخرى من العلوم الأثرية والمنطقية والفلسفية والاجتماعية. كذلك الذي يؤخذ عليهم هو أخذهم للقرآن كشاهد على تفاسيرهم لأنهم لا يميزون ما هو ديني وما هو تاريخي. ومثال على ذلك سيد قطب، الذي كان هدفه من التصوير الفني للقرآن هو جمع الصور الفنية للقرآن دون التعرف للمباحث اللغوية أو الكلامية لغرض الوصول الى اصلاح اجتماعي (١٥).

ثانياً: مفهوم النص عند الأوربيين: ليقراً المفكر الغربي أو المستشرق النصوص سواء كانت نصوصاً دينية أو نصوصاً عامة، وذلك باستخدام منهج التأريخ في القراءة والمبني على عملية النقد الشامل للنص والتراث والممارسة التي نتجت عنها. هذه المناهج هي امتداد معرفي للعلمانية الليبرالية التي تنطلق من مفاهيم الحداثة التي تتخذ من الانسان مرجعية عقلية، متخذة في نفس الوقت من الفلسفة التاريخية منهجا مستخدمين أداة أو وسائل منهجية مختلفة مثل **الانثروبولوجي**، و**السياسيولوجي** بكل انواعه ومنها **سياسيولوجي الدين** و **سياسيولوجي المعرفة**، وكذلك علم النقد

اللاهوتي ذات الصلة مثل الهرمونيوطيقية، وكان من رواد هذا التحديث هو الفيلسوف والعالم الاجتماعي الفرنسي ميشيل فوكو حيث يقول: ان البشر هم الذين يصنعون التاريخ ، ولا دخل للقدرة الالهية في ذلك ولا القوى الغيبية، وبالتالي فالتاريخ كله بشري من ادناه الى أقصاه (١٦) .

عندما يفسرون المستشرقون النصوص الدينية فانهم يبنون أفكارهم على (انسنة النصوص الدينية) أي جعلها مصدرا بشريا لا مصدرا الهيا أو ربانيا. أي أن النص هو سياق أدبي يتكأ على بعد زمني تاريخي. لذا فالعلاقة المراد كشفها بين العالم المرئي والعالم غير المرئي هي ليست علاقة خالق ومخلوق بل هي علاقة مخلوق مع مخلوق. وهذه تشمل كل دراسات النصوص الدينية سواء التوراة أو الانجيل أو القرآن. لذا هؤلاء الباحثون والمفكرون ، يأخذون التراث الاسلامي وغيرالاسلامي كمنتج تاريخي بشري. وهذه الحداثة كما اتضحها الفيلسوف الالمانى موغن هابرماس (١٧) ، هي وحدها القادرة على زحزحت الموضوعات التقليدية نحو اشكاليات جديدة. أما الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا، في نقده للنص اللاهوتي في الغرب، يؤكد على أسبقية السياق على الكتابة والسبب هو للوصول الى نتيجة منطقية مفادها انه ليس للنص معنا ثابت.

المنهج الغربي بصورة عامة، يأخذ بنظر الاعتبار الحقائق التاريخية، والحقائق الاجتماعية، والحقائق اللغوية التي كتب في حينها النص كحقيقة مادية ثابتة. اما علماء المسلمين بصورة عامة حاولوا الابتعاد عن هذه الفلسفة في تفسير النصوص الدينية الا أنهم وقعوا في نفس منهج التفكير الغربي من حيث لا يعلمون باستخدامهم أدوات ووسائل منهجية مختلفة في تفسير بعض الظواهر الدينية وذلك باستخدام طريقة المقارنة التاريخية والانثروبولوجية الاجتماعية، أي استخدموا طريقة التحليل الاجتماعي والتاريخي والانثروبولوجي لاضاءة النصوص الدينية والكشف عن مشروطيتها التاريخية مثل مسألة الخلافة بعد وفاة الرسول(ص). وهذه الطريقة نجدها اليوم عند مدرسة الحوليات الفرنسية وميشيل فوكو الذي هو رائد هذه المدرسة والذي يميز بين تأريخ الافكار وتأريخ الانسان الفكرية.

ثالثا: مفهوم النص الذي على ضوئه بني هذا البحث: بالنسبة لنا: ان الله سبحانه الخلاق الذي تجلى في التاريخ الأرضي للبشر عدة مرات عبر رسله وأنبيائه وأوليائه وقد بلغ أوامره ونواهيته عن طريق الوحي الذي أتخذ أشكالا مختلفة، وبدوره أي الوحي نقل الى البشر الحقيقة الغيبية. نحن نستخدم الجينيالوجيا كوسيلة نهج لتفسير النصوص الدينية للعودة الى الله سبحانه. فكل شيء يأتي منه وكل شيء يعود اليه. أي أقصد العالم، والتاريخ. ونحن لا ننحاز لا الى الغرب أو الشرق، لا للدين أو للدنيا، لا للروح أو للجسد، لا للفلسفة اللاهوتية أو العلمانية، بل ننتمي الى منهج لبناء الحقيقة وبواسطة هذا المذهب نضع العقل البشري تحت المجهر ليستطيع أن يميز بين الخطاب

الالهية والخطاب البشري دون أن يضع الأول في سياقات الدلالية والقوانين البلاغية والوسائل الاستقرائية.

انخرطنا في قراءة النص القرآني والتراث الاسلامي معتمدين منهاجاً ووسيلة في القراءة يقوم :

أولاً: على أن الحقيقة تسبق الوجود في النصوص المتعلقة بالعقائد الايمانية. أي أن الإرادة الالهية وهي كن، تسبق الوجود، يكون أو كون. أي أن الحقيقة سبقت التأريخ وهي التي تسيّر وتوجه التأريخ، وما التأريخ الا نتاج لهذه الإرادة السابقة وليست نتاج تطور زمني وحدث تأريخي. **فالجينالوجيا** ترجع الأحداث الى مصادرها. أما في حالة العقائد التشريعية، فنشرح النصوص الخاصة بها تبعاً للزمان أي توضع في مساحة التأريخ لأن الوجود يسبق الحقيقة. أي بصورة ملخصة أنها تدخل في مساحة الاجتهاد. لذا نأخذ بنظر الاعتبار ربط الوثائق والنصوص بالمرحلة الزمنية التي كتبت فيها وموصولة بتعين طبيعة القوى الاجتماعية السائدة، والحركات الفكرية المتكونة في تلك الفترة. أي القوانين والشرائع والأفكار التي تنشأ في فترة معينة. لذا في هذه الحالة نخلع القدسية على العقائد الايمانية.

أما في الحالة الثانية، فلا يمكن خلع قدسية في الاشياء الأكثر دنيوية أي حالة الوجود يسبق الحقيقة.

فالتأريخ هو لحمة منسوجة من العلاقات الثنائية، الروحية والجسدية، الدينية والدنيوية، فاذا ما أردنا أن نعيد تفسير النصوص الدينية على حقيقتها، فعلياً أن لا نعطي أولوية لأي عنصر من هذه العناصر الداخلة في التركيب بل اعطاؤها التوازن، لأن كلها تستحق الاهتمام. ولذا نحن ندرك تماماً صعوبة المنهج والأداة، أي المنهج الاستنباطي باستخدام **الجينالوجيا** كأداة في هذا البحث، خصوصاً أن ما نطرحه ليس مألوفاً استخدامه بعد في دراسة النصوص الدينية والتراث، لذا نجد صعوبة كبيرة في تأمين الربط بين الحقيقة والوجود، وبين كن و فيكون، وبين الدين والدنيا وبين الروح والجسد، وبين السماء والأرض، وبين العقائد الايمانية والتشريعية، وذلك لأن العلاقة بين هذه الثنائيات هي علاقة غير مباشرة ولا تخضع أحياناً لنفس المنهج والأداة.

هذه المقاومة والصعوبة يمكن أن نفهمها، بأن المجتمع الاسلامي بصورة عامة والعربي بصورة خاصة أنه عقل ديني، أي أنه يعطي أولوية للعقائد الايمانية على التشريعية وكل شيء يعتبره مقدساً، أي يخلع ثوب القدسية على الممارسات الأكثر دنيوية ومادية.

المبحث الثاني: نشأة التشيع والشيعة: لقد كتب في نشأة التشيع والشيعة كثير من الكتب والبحوث والدراسات من بداية القرن الأول للهجري ابتداء من اليعقوبي والطبري والمسعودي وابن ابي الحديد

وبن قتيبة مرورا بالطوسي وانتهاء بالسيد محسن الأمين العاملي والسيد محمد باقر الصدر ومحمد حسين المظفر وغيرهم من العلماء الأجلاء. وعندما نبحت عن موضوع مهم ومعقد مثل هذا العنوان، ممكن أن نحصل على جوابين مختلفين قريبا أو بعيدا في حالة معالجته من خلال مساحتين بحثيتين مختلفتين ، وبمنهجين مختلفين.

إذا عالجناها عن طريق المساحة التاريخية فتكون نشأة الشيعة ظاهرة تاريخية بالرغم من انها تقدم للباحث مادة كبيرة ناتجة من مصادر لا يستهان بها، الا انها لا تخلو من التناقض لانها تتأثر عادة بأهواء كاتبها. الظاهرة التاريخية عندما يراد دراستها فانها لا تخلو من أبعاد ثلاثة: البعد الأول هو الزمان، والبعد الثاني هو المكان، أما البعد الثالث فهو الشخص أو الشخصوس التي تدور الأحداث حولهم. فإذا اعتبرنا التشيع ظاهرة تاريخية فنقول أن التشيع بدأ من كذا فترة (بعد وفاة الرسول مثلا)، وفي كذا مكان (السقيفة مثلا)، أما الشخص أو الشخصوس فهو ابعاد الامام علي عن الخلافة . فالأبعاد الثلاثة موجودة عند دراسة أية ظاهرة تاريخية. هنا يحدث الخلاف والتناقض والغموض وتضارب الآراء أو تشابهها أحيانا. قسم يختلفون في الزمان. منهم يقول بعد السقيفة، ومنهم قبل وفاة الرسول (ص)، ومنهم بعد معركة صفين ، ومنهم بعد استشهاد الامام الحسين (ع). هذا في الزمان . أما المكان كذلك. وممكن البعض يستعين في القرآن الكريم لتعزيز بعد من هذه الأبعاد ثم بعد ذلك تربط الأحداث التاريخية بظروفها ثم دراسة ما تكون منها من عقائد وأفكار. أي ان العقائد والأفكار ما هي الا نتاج لهذه الأحداث التاريخية. ويصبح التأريخ هو صانع التشيع. ولولا السقيفة ومأساة كربلاء لما كان للتشيع من وجود.

أما عندما ندرس ظاهرة التشيع والشيعة كظاهرة قرآنية ، هنا نأخذ القرآن المصدر الوحيد وليس مقابله شيء، وبه نفس الظواهر التي نبغي دراستها.

الظاهرة القرآنية تخلو من الأبعاد الثلاثة، أي الزمان والمكان والشخص. لأن الظواهر والسنن القرآنية هي خارجة عن الزمان والمكان والشخص، لأنها من صنع الله وليس من صنع التأريخ. هذه الظواهر لا تخضع لأحوال وفتيه وخارجية ولا لعوامل نفسية. أي الأحداث لا تدار حيث ما دارت الأحوال والأوضاع وما شاء الشخص أو المجتمع، ولا يستطيع أحد أن يحدث تغييرا أو تبديلا أو تحويلا أو تعديلا.

كما في قوله تعالى: (قل ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) سورة يونس ١٥؛ وكذلك قوله سبحانه : (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل) سورة المائدة ٦٧.

أما بالنسبة للشخص، وهذه هي السمة الأساسية المميزة بين الرسل والأنبياء والأسباط والحواريين والأئمة ، وأولي العلم ومن عندهم علم الكتاب، وبين القادة والزعماء والذين تكون رسالتهم وكفاحهم من وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم ومع مراعات المصلحة السياسية والظروف والأحوال المحيطة بهم. أي المقصود هو ان الرسائل السماوية هي من وحي الله عز وجل وليست من وحي البيئة والمجتمع.

أولاً: التشيع والشيعية ظاهرة تاريخية: ان التشيع ظاهرة تاريخية أي ولدت من رحم الأحداث التاريخية. أي تخضع للأبعاد الثلاثة وهي الزمان والمكان والأشخاص. يقول الكاتب الفرنسي بول فاليري، التاريخ هو أخطر محصول أنتجته كيمياء الفكر (١٨) .

بينما كارل ماركس يقول، الانسان هو الذي يصنع التاريخ لكنه يجهل نتائجه (١٩).

وأما المؤرخ السخاوي يقول، التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان حيث التعيين والتوقيت، وموضعه الانسان والزمان (٢٠).

اذا كانت الظاهرة التاريخية تسعى الى تحديد معالم الماضي باعتباره مجموعة من الوقائع التي حصلت في زمان ومكان محددين ومحورها الانسان، فان استحضار هذا الماضي ليس عملية سهلة لأن ذلك يقتضي توفر نهج خاص يعيد لبناء الظاهرة التاريخية انطلاقاً من الوثائق والمصادر التاريخية ولكن مع ذلك يظل بناء معرفة دقيقة بالماضي يواجه عائق المسافة الزمنية التي تفصل الماضي عن الحاضر، لذا تبقى معرفة أية ظاهرة هي نسبية بحد ذاتها.

لقد كتب في نشأة التشيع والشيعية كثير من المصادر سواء أكانت شيعية أو سنية ، ومنها مصادر اختصاصية ومصادر عمومية، ومنها:

١.مقاتل الطالبين لأبي فرج الاصفهاني: وهذا الكتاب يدور حول تاريخ التشيع ويبحث في من قتل من آل أبي طالب على أيدي الحاكمين والظالمين (٢١).

٢.الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة لعلي خان الشيرازي: ويبحث هذا الكتاب عن تاريخ التشيع في فصول تاريخية عديدة ومختلفة (٢٢).

٣.أعيان الشيعة لمحسن الأمين العاملي: هذا الكتاب واضح من اسمه فهو يبحث عن شخصيات شيعية، وكذلك التاريخ العام للتشيع واحتوى على اثني عشر بحثاً حول مفهوم الشيعة وانتشار التشيع بين الصحابة والتعامل التعسفي مع شيعة أهل البيت والافتراءات على الشيعة وخاصة عقيدة الامامية (٢٣).

٤. تأريخ الشيعة لمحمد حسن المظفر: ويعد هذا البحث من المصادر الهامة والمعتبرة في تاريخ التشيع حيث قام المؤلف بدراسة تأريخ الشيعة من عصر الرسالة حتى عصره هو (٢٤).

وهناك قراءات وفرضيات ونظريات في نشأة التشيع والشيعة ومنها:

١. ظهور التشيع في زمن الرسول (ص): ويستدل أصحاب هذا الرأي على مقالتهم هذه بان اسم الشيعة كان يطلق على بعض الصحابة في عهد الرسول (ص)، وهم صحابة مقربون لعلي بن أبي طالب (ع)، وهم سلمان الفارسي والمقداد وأبا ذر وعمار بن ياسر ومالك الأشتر. ومن مؤيدي هذا الرأي من المعاصرين هم محمد جواد مغنية، ومحمد حسين كاشف الغطاء، ومحمد حسين الطباطبائي، والسيد محمد باقر الصدر، والدكتور عبد الله فياض.

٢. ظهور التشيع بعد وفاة الرسول (ص): الزمان هو بعد وفاة الرسول (ص)، والمكان هو السقيفة، والشخص هم ابو بكر عين خليفة للمسلمين واقضاء الامام علي (ع) عن الخلافة رغم تعيينه كوصي وخليفة من قبل الرسول (ص) في مواضع مختلفة ومن ابرزها يوم الغدير.

٤. نشأ التشيع بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

٥. نشأ التشيع بعد حرب صفين التي دارت بين الامام علي (ع) ومعاوية بن أبي سفيان.

٦. نشأ التشيع بعد واقعة كربلاء.

٧. نشأ التشيع في زمن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع).

الاجتهادات في زمن ومكان نشأة التشيع مختلفة ولكل طرح أنصاره. والسبب في هذا التباين هو طبيعي لأننا عالجت ظاهرة التشيع كظاهرة تاريخية ولدت من رحم التاريخ. والفرق بين الشيعة والسنة هو أن السنة يأخذونها كظاهرة تاريخية كلية، أما الشيعة فانهم يؤكدونها بسند الهي ونص قرآني الا انهم لم يخرجوا من دائرة المساحة التاريخية أي ان القرآن يستخدم كمؤيد للتأكيد على الحدث التاريخي.

ثانيا: التشيع ظاهرة قرآنية: الباحثون والكتاب الشيعة ومؤيدوهم قد أعطوا لهذه المساحة القرآنية مكانا مميزا وذلك بالتأكيد على أحقية الامام علي (ع) بخلافة الرسول (ص) هو وأولاده ومنها:

١. قوله تعالى: (فمن حاجك فيهم بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل ونجعل لعنة الله على الكاذبين) سورة آل عمران:

٢. قوله تعالى: (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) سورة الأحزاب: ٣٣.

٣. قوله تعالى: (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) سورة المائدة: ٥٥.

٤. آية البراءة (**بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**)

٥. قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ) سورة المائدة: ٦٦.

وفضلا الى وجود أحاديث نبوية كثيرة قد خصت الامام علي(ع) وأهل بيته ومنها:

قوله(ص): (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه وعادي من عاداه) (٢٥).

قوله(ص): (انت مني بمنزلة هارون من موسى).(٢٦).

وقوله(ص) (انا مدينة العلم وعلي بابها) (٢٧).

نشاهد من هذا العرض ان التركيز على الامام علي(ع) وشرعيته لقيادة الرسالة الاسلامية بعد الرسول(ص) ، هذا المنهج في البحث يوقعنا من حيث لا ندري في المساحة الاولى وهي المساحة التاريخية لاننا اعتمدنا على القرآن لتأكيد الظاهرة التاريخية المحكومة بالمكان والزمان والشخص.

اذن كيف القرآن الكريم يعرض ظاهرة التشيع بدون الانزلاق في المساحة التاريخية؟

استخدام الجينولوجيا كوسيلة للمنهج الاستنباطي يعتمد على ان الظاهرة وهي التشيع موجودة قبل خلق الزمان والمكان والأشخاص. وما الفترة الزمنية الا ظهور هذا الجنين الذي تكون مسبقا. أما الأشخاص فانهم اختيروا للعب هذا الدور قبل ولادتهم. وسموها علماء الاجتماع والتاريخ **بالفيونولوجيا**، وهي دراسة نوعية لعقيدة الدين ونظرتها للعالم وللانسان. لذا يظهر فيها حقيقة واحدة لا غيرها. ولتبسيطها فهي كالبرعم في شجرة التفاح، تحتاج الى وقت لظهور الاوراق والثمار. وليس الربيع هو الذي كون هذا الحدث ، لأن الاوراق والثمار موجودة في البرعم ولكن على شكل ميكروسكوبي صغير. نفس الشيء فالتشيع موجود من قبل و الوقت لم يخلقها بل لعب دورا لظهورها. كن هي الكلمة التي سبقت الكون، وهذا الفعل كن تحول الى اسم كون .بمجرد ما أضيف حرف الواو تحول الفعل الى اسم، أي الى مادة محكومة بالزمان والمكان. هناك حقائق قرآنية وهي:

١. ان الله عز وجل سن لكل امر في هذا الوجود حكما وقانونا لا يحيد عنه أحد. فالسنن التي فطر الله عليها أمور خلقه، هي مجموعة قوانين سنها سبحانه لهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف انواعها وتباين اجناسها. وتتصف السنن الربانية بالشمولية والثبات. فالدين هو مجموعة حقائق وسنن على الانسان معرفتها. وان جزءا كبيرا من الهدى اساسه ان تعرف الانسانية هذه السنن الكونية. فاذا ضاعت معالم السنن ضاعت معالم الدين. قوله تعالى: (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) سورة الاحزاب: ٦٢؛ وقوله تعالى: (سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلا) سورة الاسراء: ٧٧.

٢. وخلق الله سبحانه الانسان وزوده بوسائل المعرفة، ليكون خليفة في الأرض حتى يعمرها ويسخر مافيها لمعيشته ومن ثم يتخذها مقرا لعبادة الله. لكن هذه الوسائل المعرفية لا يستطيع الانسان الاحاطة في معرفة سنن الله الكونية وقوانينه الا بالقدر اليسير من كثير مما حوله في هذا الكون الفسيح المحسوس المرتبط ارتباطا وثيقا بحياته ذلك ان أكثر ما في هذا الكون يدخل في عالم الغيب النسبي أو المطلق بالنسبة للانسان مما يجعله في حاجة الى مصدر عليم يزوده بمعلومات تزيح عنه الستر وتكشف عنه غوامض الكون. وبما أن الانسان كائن اجتماعي لا يمكنه العيش منعزلا عما حوله من كائنات موجودة فهو كذلك بحاجة الى قواعد ونظم لترتيب حياته الفردية والاجتماعية والاسرية. ارتباط هذه النظم بالسنن الربانية يضمن للانسان الثبات والاستقرار. لذا اصطفى الله سبحانه من البشر أفرادا ذوي طبيعة خاصة ويعدهم اعدادا خاصا لمساعدة البشرية على فهم هذه السنن والعيش بسعادة وأمان.

٣. وبعث الله سبحانه وتعالى منذ أبينا آدم (ع) الرسل والانبياء لابلاغ الناس وتحذيرهم ، في قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) سورة المائدة: ٦٧.

الانبياء هم القدوة الحسنة، وذلك في قوله تعالى: (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) سورة آل عمران: ٣٣.

وقوله تعالى: (قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالتي و بكلامي) سورة الاعراف: ١٤٤؛ وكذلك قوله تعالى: (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) سورة النمل: ٧٢؛ وكذلك قوله: (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) سورة الحج: ٧٢.

فالانبياء هم أقرب الخلق الى الله وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم اليه وأكرمهم عليه.، فخير الدنيا والآخرة انما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع.

٤. عقيدة اتصال السماء بالأرض عن طريق الأحياء بأشكاله المختلفة لم تنقطع منذ أدينا آدم (ع) ولحد يومنا هذا. ما من أمة خلت من رسول، أو نبي، أو وصي. قال تعالى: (ولكل قوم هاد) سورة الرعد: ٦٧؛ وكذلك قوله سبحانه: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) سورة النحل: ٣٦؛ وقوله تعالى: ومن من أمة إلا خلا فيها نذير) سورة فاطر ٢٤.

الإسلام ولد بعد تلبية الله سبحانه دعوة إبراهيم (ع) التي سبقت ولادة الرسول (ص) بحوالي ٣٠٠٠ سنة.

في قوله تعالى: (ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم) سورة البقرة: ١٢٩؛ هنا استجاب الله دعوته بقوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) سورة الجمعة: ٢. أي هذه الاستجابة احتاجت الى ٣٠٠٠ عام لولادتها. أي ان هذه الدعوة بأشخاصها هي موجودة قبل ولادتها وولادتهم. أعد الله الأسباب لظهورها وانتصارها. أي حسب الطريقة البحثية الجينيالوجيا، أن ظاهرة الدعوة الإسلامية موجودة قبل ولادة الزمان والمكان والأشخاص. فهي ليست ظاهرة جيئت بها الاحداث بل هي ظاهرة جيئت بالاحداث . والقرآن أو الرسالة المحمدية تركزت حول قطبين اساسيين وكل ما بين هذين القطبين هو محكوم بهما ، **القطب الأول** هو عقيدة التوحيد: أي انهاء حالة الشرك وعبادة الله الواحد (أي موجهة الى العرب المشركين وليس لأهل الكتاب لأنهم يؤمنون بوحداية الله)،

وأما **القطب الثاني** فهو عقيدة اتصال السماء بالأرض: أي ان يصبحوا العرب المشركون بعد ايمانهم أولا بأهل الكتاب، مثلهم مثل اليهود والنصارى لأن اليهود كانوا يطلقون على المشركين بالأميين لأنهم ليسوا أصحاب كتاب منزل وذلك بقوله تعالى: (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لم يؤده اليك الا ما دمت عليهم قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيلا) سورة آل عمران: ٧٥. ومن خلال هذا الكتاب سوف يكتشفون هذه العقيدة.

لقد نشأ خطان أو فريقان متناقضان لا في الظاهر بل في الباطن بعد نزول الآية في قوله تعالى: (وانذر عشيرتك الأقربين) سورة الشعراء : ٢١٤. ينذر محمد(ص) عشيرته بهذين المحورين. لماذا عشيرته وليس باقي الناس؟ أراد الرسول أن يبين لهم عقيدة اتصال السماء بالأرض والمكتوب في الكتاب أي القرآن وهي: أن السماء تتصل بالأرض عن طريق الوحي منذ آدم والى يوم يبعثون الى اناس أصطفاهم الله لهذه المهمة. لقد أودع الله هذه المهمة الى آل إبراهيم في بني اسرائيل من نسل اسحاق ومن ثم قفى بهم وختم النبوة في بني اسرائيل في عيسى (ع) . الآن انتقلت النبوة وبمشيئة

الله الى أولاد اسماعيل وفي آل محمد الى يوم القيامة. ولذا طلب الرسول (ص) منهم أن يتحملوا شرف هذه المهمة في قوله (ص) عن الامام علي (ع) : (يا بني عبد المطلب اني والله لا أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم بهه، اني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه فأياكم يوازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم. قال : فأحجم القوم عنها جميعا وقلت أني لأحدثهم سنا وأرمصهم عينا وأعظمهم بطنا وأخمشهم ساقا. أنا يا نبي الله أكون وزيرك ، فأخذ برقبتي ثم قال: أن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأسمعوا له وأطيعوا، قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع) (٢٨).

والتقاليد العربية في تلك الحقبة الزمنية كانت تنتقل من جيل الى آخر عن طريق الكلام غير المكتوب. والكلمة كانت عهدا وليس نصا مكتوبا يلتزم به. ومعروف عند العرب آنذاك كانوا يخونون العهود والمواثيق ولذا كان الرسول(ص) يكتب كل ما تعاهدوا عليه حتى يصبح حجة عليهم لا عليه.

فالقرآن وضح بصورة لا لبس فيه عقيدة اتصال السماء بالأرض واستمرارها حتى يوم الدين حتى تكون حجة على العرب بعد وفاة الرسول(ص) وان اعترفوا بها في حياته ممكن ان ينكروها بلسانهم من بعد مماته بحجة انها غير مكتوبة.

الخط أو الفريق الأول الذي ظهر بعد الآية (وأندر عشيرتك الأقرين)، هو رفض تام لهذه العقيدة بل ومحاربتها من قبل المشركين العرب في مكة.

أما الخط الثاني وهم أهله فأنهم آمنوا بها. وبعد فترة من الزمن ألتحق في الخط الثاني كثير من الناس وحتى فتح مكة والى يوم وفاة الرسول(ص). هنا أتحد المهاجرون والأنصار في خط واحد هو رفض عقيدة اتصال السماء بالأرض بحجة ان الوحي قد انقطع بعد وفاة الرسول(ص) الا قليل جدا يؤمنون بالخط الثاني أي استمرار الرسالة عن طريق الامام علي(ع) وأولاده.

الآن سوف أوضح بشكل أدق هذه العقيدة القرآنية. القرآن الكريم وضح هذه العقيدة بالشكل الآتي:

١. عندما يقول القرآن، آتيناها الكتاب، أو أنزلنا الكتاب، أو نزلنا الكتاب، فهو يخص هنا الرسل. بينما عندما يقول، أورثنا الكتاب، فهو يخص هنا الأنبياء. مثال:

قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلمك تهتدون) سورة البقرة: ٥٣؛ وكذلك قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات) سورة

البقرة: ٨٧ ؛ وكذلك قوله: (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل) سورة آل عمران: ٧٩ . هذه الآيات تخص فقط الرسل وهم، موسى وعيسى ومحمد.

أما قوله تعالى: (ثم أورتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقصد ومنهم سابق للخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) سورة فاطر: ٣٢ ؛ وكذلك قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب) سورة غافر: ٥٣

أي أن الانبياء والأوصياء بعد نزول الكتاب على رسلهم، فهم ورثة الكتاب. أي دورهم التبليغ وتطبيق الشرائع. بينما في حالة النبي يوسف(ع)، لم يقل الله سبحانه آتينا الكتاب بل يقول : (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) سورة يوسف: ٢٢؛ وكذلك قوله سبحانه: (فوجد عبد من عبادنا آتيناه من عندنا وعلمناه من لدنا علما) سورة الكهف: ٦٥ ؛ وكذلك قوله تعالى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) سورة مريم: ١٢ .

أما في حالة النبي داود، يقول سبحانه: (وآتينا داود زبوراً) سورة النساء: ١٦٣، ولم يقل سبحانه آتينا سليمان، بل سليمان ورث الزبور ولم ينزل عليه.

٢. كل الرسل الذين نزل عليهم الكتاب، ورثوه لأولادهم، بقوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) سورة الحديد: ٢٦. نزل الكتاب على نوح، ومن ثم ورثه لأولاده. ونزل الكتاب على ابراهيم، ومن ثم ورثه الى أولاده. ونزل الكتاب على موسى، فورثه الى أولاد أخيه هارون ومنه الى بني اسرائيل من نسل يعقوب. ونزل الكتاب على داود وهو الزبور فورثه لابنه سليمان. ونزل الكتاب على عيسى وهو الانجيل، فورثه من بعده للحواريين بوحي من الله سبحانه. ونزل الكتاب على محمد(ص)، فمن ورث الكتاب من بعده؟.

ذكر القرآن كلمة قفينا أي خلف و تكررت أربع مرات، وخصت كلها بني اسرائيل. قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا بعده بالرسل..) سورة البقرة: ٨٧. حسب تفسير الطبري لهذه الآية يقول: معناها أي اتبعنا بعضهم بعضا على منهاج واحد وشريعة واحدة. لأن كل من بعثه الله سبحانه نبيا بعد موسى الى زمان عيسى، فانما بعثه ليأمر بني اسرائيل باقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء الى ما فيها (١٤). وكذلك قوله تعالى: (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم...) سورة المائدة: ٤٦ ؛ وقوله سبحانه: (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم...) سورة الحديد: ٢٧. أما في حالة الرسول محمد (ص)، لم يقل القرآن قفينا به. أي لم يأت على أثر النبيين من بني اسرائيل، لأن نبوة بني اسرائيل ختمت بعيسى (ع).

وعندما يقول الله سبحانه: (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليم) سورة الأحزاب: ٤٠. أي أن محمد (ص) ختم النبوة سواء كانت من اولاد اسحق أو من أولاد اسماعيل.

السؤال الذي يطرح الآن وهو: اذا كانت عقيدة اتصال السماء مستمرة وبوجود الرسل والأنبياء، فكيف استمرت عندما يكون هناك أمم بدون أنبياء؟ أو أحقاب زمنية بدون أنبياء؟ مثلاً بين النبي يوسف (ع) والنبي موسى (ع) ما يقارب أقل من ألف عام، وبين النبي عيسى (ع) والنبي محمد (ص) حوالي ٦٠٠ عام.

الجواب يأتي من القرآن وهو: أوحى الله سبحانه الى أوصياء وسماهم الأسباط بين يوسف وعيسى، وسماهم الحواريين أو أولي العلم بين عيسى ومحمد، وذلك في قوله تعالى: (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى..) سورة النساء: ١٦٣؛ وكذلك قوله تعالى: (واذا أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي) سورة المائدة: ١١١.

أما بين النبي عيسى والنبي محمد هناك الحواريون ومن بعدهم سماهم القرآن بأسماء عدة: قوله تعالى: (من عندهم علم الكتاب) في سورة الرعد ٤٣؛ وكذلك قوله تعالى: (علماء بني اسرائيل) في سورة الاعراف ١٥٨؛ وقوله سبحانه: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) في سورة السجدة: ٢٤؛ وقوله سبحانه: (واسأل أهل الذكر) في سورة النحل ٤٣. هؤلاء أصطفاهم الله وملاؤا الفراغ حتى بعث النبي محمد (ص) فالإيحاء انتقل الى الرسول وهؤلاء التحقوا بالرسالة وذلك في قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به بانه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمون أولئك يؤتتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة.....) سورة القصص: ٥٢-٥٥. يفسر هذه الآية بن كثير في قوله: مرة أولى ايمانهم بالمسيح والمرة الثانية ايمانهم بمحمد (٣٠)؛ وكذلك قوله تعالى: (ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا مفعولا) سورة آل عمران: ١٩٩.

سؤال يطرح هو: هل بين النبي محمد (ص) و يوم البعث قد انتهت عقيدة الأوصياء أم ما زالت مستمرة؟ واذا كانت مستمرة فمن هم هؤلاء الأوصياء بحسب القرآن وليس بحسب التكهنات أو بحسب التاريخ؟

الجواب هو: مولد عام جديد ومولد تسلسل الهي نبوي جديد وظهور آل جديد

مولد الرسالة الإسلامية المحمدية لم يكن مولد نبي مبعوث من سلالة ابراهيم فحسب، أو مولد أمة عربية من سلالة اسماعيل تأخذ في عاتقها شرف الرسالة، أو مولد عصر جديد، انما هو أيضا كان مولد عام جديد بدأ من اليوم الأول للبعثة ويستمر الى يوم يبعثون. وقد ذكر سبحانه : (**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**) **سورة السجدة: ٢٤**. يفسر هذه الآية سيد قطب: (للايحاء للقللة المسلمة يومذاك في مكة أن يصبر كما صبر المختارون من بني اسرائيل. وتوقن كما أيقنوا ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبني اسرائيل. وهنا ذكر القرآن الكريم الأئمة ، ولتعزير طريق الامامة والقيادة يتطلب الصبر واليقين، وهي سنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابي. وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة في نشوئها ودهورها، وضعفها وقوتها. والقرآن الكريم ينبه الى ثبات هذه القوانين، واطراد تلك السنن) (٣١).

وعندما علم العرب في هذه العقيدة ، وهي عقيدة الاوصياء، بأ الله سبحانه يهيء المسلمين لهذه العقيدة بصورة دقيقة لا لبس فيها ولا خلاف في المدينة . ونرى ذلك ابتداء من السنة الثالثة للهجرة أي بعد واقعة أحد في قوله تعالى: (**أم يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما**) **سورة النساء: ٥٤**. يؤكد السيد الطباطبائي في تفسيره لهذه الآية: آل ابراهيم ليس المراد به بني اسرائيل بل هم أولاد اسحاق واسماعيل. (٣٢). أما حسب الطبري: يحسدون محمد لأنه من العرب وليس من بني اسرائيل. فقد جعلنا في اسباط بني اسرائيل الذين هم من ذرية ابراهيم النبوة وانزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة وجعلنا منهم الملوك(٣٣). والآية تعلن عن حسد الناس (العرب أو العرب مع أهل الكتاب) للرسول(ص) لأنه تساوى مع شرف آل ابراهيم. أي شمل اللطف الالهي آل محمد كما شمل سابقا آل ابراهيم. ولذا حرمت على آل محمد الصدقة. حسدوا الرسول وآل بيته، على ما آتاهم الله من فضله، وما آتاهم من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلادا جديدا، وجعل لهم وجودا انسانيا متميزا، كما وهبهم الطهارة من كل أنواع الرجس في قوله تعالى في السورة التي تلت سورة النساء في الفترة من بعد غزوة بدر الكبرى الى ما قبل صلح الحديبية: (**انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**) **سورة الأحزاب: ٣٣**؛ وبعدها مباشرة تأتي آية أخرى في نفس السورة في قوله تعالى: (**ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**) **سورة الأحزاب: ٥٦**. لذا وجبت في الصلاة في بعض المذاهب الإسلامية الصلاة على محمد وآل محمد في التشهد الأخير فان تركت لم تصح الصلاة . وقد ورد أكثر من ثماني عشرة حديثا تدل على تشريك آل محمد معه في الصلاة. وقد ساوى الله سبحانه آل محمد بآل ابراهيم، لأن ابراهيم ومحمد كانتا دعوتهم ضد الشرك والوثنية. بينما كانت دعوة موسى وعيسى ضد الظلم. هوية آل محمد وآل ابراهيم هي: اجتناب الرجس والأوثان، واجتناب قول الزور. وقد

عرفوا آل محمد بعدم تكالبهم على حطام الدنيا والتناحر على جيف المائدة والتقاتل في سبيل الجاه، بل كانت دعوتهم وحياتهم كما في قوله سبحانه: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) سورة القصص: ٨٣.

ابراهيم (ع) هو مؤسس حضارة النبوة. ومحمد(ص) هو حفيده ومجدد هذه الحضارة وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود وأرسى قواعدها، وشد بنيانها وجعلها خالدة باقية الى يوم الدين بأله (ع). آل محمد هم أئمة الهدى بنوا حضارة انسانية لا تعرف الفصل بين الانسان والانسان (اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) (٣٤)، ولا التمايز في الألوان ولا حود بين الأوطان. لا فضل عربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي.

في هذا العام الجديد والمولود الجديد أنقسم أهل القرآن الى شيعة وسنة.

أنقسام أهل القرآن الى سنة وشيعة: اختلاف الأمة الواحدة في البيئة والثقافة قد يجر الى اختلاف في العقيدة. وهذا ما جرى للإسلام منذ تاسيسه، كما جرى لغيرها.

هذه الصورة تظهر لنا أن أتباع محمد (ص) من مكة، وعلى رأسهم آل بيته (خديجة، علي، فاطمة، أبو طالب، الحمزة وعقيل) كانوا يدعمون الدعوة بكل امكانياتهم سرا ثم علانية. ويقوا يتحملون مع الرسول(ص) مسؤولية الدعوة كل الاذى حتى اضطروا الى الهجرة الى المدينة.

المهاجرون كانوا يدركون ويعرفون روح الرسالة التي بنيت على خلافة بني اسرائيل ببني محمد أي آل محمد. ولم نجد في التاريخ أي اعتراض على ذلك ، وانتقل هذا العرف الى الانتصار وما غدير خم وآية المباهلة وتجابوب المسلمين كافة بصورة ايجابية لا يطعنه شك هو خير دليل على ذلك. غدير خم هو ليس اعلان بل التأكيد على عهد عرفه المسلمون كافة وخاصة المهاجرون. اما المباهلة الذي هو أكبر حوار للإسلام مع العالم الخارجي كان صورة واضحة للخط العام للرسالة الاسلامية. وبعد وفاة الرسول(ص) جاء الجواب مختلفا، باختلاف البيئة، وبمطابقة الأعراف والتقاليد العربية. موقف المسلمين بصورة عامة تغير باتجاه آل محمد هو نتيجة التغير الديمغرافي السريع الذي حصل قبيل وفاة الرسول(ص)، حيث دخل في الاسلام أعداد كبيرة من العرب وأصبح المهاجرون قلة قليلة جدا بعد أن كان لهم وزن مع الأنصار. كان في المدينة آنذاك ثلاث جماعات حسب الكثافة السكانية.

الجماعة الأولى وهم الأنصار وهم الأكثرية وهم سكان المدينة الأصليين. ازداد عددهم في السنين الأخيرة من الدعوة الاسلامية من كل صوب وحذب وهؤلاء أطلق عليهم القرآن مصطلح الأعراب. الأعراب لم يعيشوا الرسالة السماوية من بدايتها بل عايشوها في السنوات الأخيرة. ولم يعرفوا حقيقة العقيدة الاسلامية ، ولذا قال سبحانه فيهم: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا

ولما يدخل الايمان في قلوبكم وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم (سورة : الحجرات: ١٤ . أي الايمان في عقيدة آل محمد. أما الأنصار الأوائل وان ناصروا الرسول (ص) لمدة عشر سنوات، الا انهم لم يسايروا الدعوة من بدايتها. وعشر سنوات لا تغير ثقافة وسلوك وتقاليد مجتمع، بل تحتاج الى أجيال ثلاثة على الأقل حسب الدراسات السيسولوجية. مما لعبت العصبية القبلية أي التقاليد والأعراف البدوية دورا كبيرا في سلوك المسلمين في يوم السقيفة بعد وفاة الرسول(ص). لأن الأعراف تقول، حين يطلب أحد الأفراد الجوار من قبيلة ما فانه يكتسب حصانة بأن يكون تحت حمايتها. الأوس والخزرج قاموا بحماية الرسول(ص) ومن معه من المهاجرين، لذا فهم أي الأنصار أولى بالامرة من غيرهم. لا يمكن للمحمي أن يتأمر على الحامي له. وهذا ما نراه واضحا في قول الحباب ابن المنذر بعد ترشيح سعد ابن عبادة في السقيفة، يقول : (يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فان الناس في فينكم وفي ظلكم....فأنتم أحق بهذا الأمر منهم فانه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان) (٣٥). فالحجة ليست بتمثيلهم الصادق لمبايعة الاسلام، بل لأنهم هم الحماة، ولا يمكن للمحمي أن يكون أمرا عليهم وشيخا على قبيلتهم.

أما الجماعة الثانية وهم جماعة متوسطة وهم من المهاجرين الأوائل والمهاجرين الذين أنظموا اليهم بعد فتح مكة أي من قريش. هؤلاء بالرغم من معرفتهم الجيدة لعقيدة الرسالة التي تستند على آل محمد يورثها النبوة والامامة، الا أنهم بعد ما رأوا السقيفة سوف تبعد آل محمد عن هذه الوراثة الألهية، هنا لعبت العصبية القبلية في حسم الأمور في السلم والحرب. فادعوا أن الخلافة لا تصلح الا في قريش لأنهم عشيرة الرسول(ص) ويمثلهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، واحتجوا على الأنصار بأن قريش أولى بمحمد منهم (٣٦). أحتجاجهم لم يستند الى قيم الرسالة والعقيدة، بل يستند على قيم التقاليد العربية وهي العصبية أي الولاء الى العشيرة يغلب الولاء الى العقيدة.

أما الجماعة الثالثة وهم القلة وهم بنو هاشم وفيهم العباس وعلي والزبير وقسم قليل من المسلمين أمثال أبا ذر وعمار وسلمان والمقداد، فاحتجوا على السقيفة بقول الفضل بن العباس: (يا معشر قريش ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها وصاحبنا أولى بها منكم... (٣٧)، كما أن عليا يؤكد أن له في هذا الأمر نصيبا لكنه لم يستشر (٣٨). ونحن باعتقادنا انها ليست عملية استشارة بل أن جوهر الرسالة الاسلامية هي خلافة بني اسرائيل ببني محمد أو آل محمد. هذه العقيدة غير قابلة للاجتهاد. وكان أبا ذر يقول: (علي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله وأقرتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤسكم ومن تحت أرجلكم) (٣٩). وتذكر بعض المصادر التاريخية أن بعد بيعة أبي بكر، أتفق أبو بكر وعمر بن الخطاب على أن يجعلوا للعباس

بن عبد المطلب نصيبا في الخلافة ليأمننا جانبه وليتركنا عليا بمفرده فكلما العباس في ذلك فرفض لأن هذا الأمر لآل محمد، وقال لعمر: (ان الله بعث محمدا كما وصفت نبيا وللمؤمنين وليا نحن على أمته به حق قبضه الله اليه وأختار له ما عنده فخلي على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبيين الحق لا مائلين بزيع الهوى فان كنت برسول الله فحقا أخذت وان كنت بالمؤمنين فحقن منهم... فان رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها) (٤٠). أما الامام علي (ع) يقول: (فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا وطفقت أرتتي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه فرأيت أن أصبر على هاتا أحجى...) (٤١). وما كان لعلي(ع) يقول هذا القول، اذا لم يكن متأكدا أن كافة المسلمين يعلموا علم اليقين أن الرسالة السماوية تستمر بآل محمد مثلما استمرت بآل يعقوب.

وروي أن المقداد قال في مسجد رسول الله(ص) بعد تولي عثمان بن عفان الخلافة (وا عجا لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين وبن عم رسول الله أعلم الناس وأفقههم... والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي..) (٤٢). وكذلك قول عمار بن ياسر: (يا معشر قريش، أما اذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما أنا بآمن من أن ينتزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله) (٤٣).

تتجلى العصبية القبلية في السلم والحرب في العصبية للأقارب وذوي الأرحام. وهذا النوع من العصبية يكون داخل اطار القبيلة ذاتها. فعلى الرغم من أن أفراد القبيلة يربطهم نسب واحد الا أن الرباط الكائن بين ذوي القرى من أمثال العمومة يكون أمتن من النسب العام. وأفراد القبيلة يشعرون بالتزامهم بنصرة من يشترك معهم في البيت ثم تأتي بعد ذلك نصرة المشترك معهم من الفخذ والبطن ثم العشيرة، ومع ان العصبية للقبيلة أضعف شأنًا من العصبية نحو العشيرة، الا أن عصبية القبيلة تغطي على ما سواها بمقدار الخط الذي يهدد القبيلة. كما يمكن أن تتجاوز هذه العصبية نظام القبيلة الى القبائل الاخرى المتحالفة، أو عصبية الولاء. وهذا ما حدث بعد وفاة الرسول(ص)، حيث تعصب الأوس والخزرج لبعضهم ضد قريش، وتعصبت قريش لأفخاذهم وبطونهم وعشيرتهم قبل قبيلتهم، لذلك نرى لا الأنصار ولا المهاجرين قد احتجوا بالعقيدة وأحقية وراثته النبوة والامامة الى آل محمد، بل أحتجوا بناء على الأعراف القبلية. وهذا ما شاهدناه في أقوالهم جميعا. حيث أكدوا هذا العرف القبلي السائد آنذاك. بينما نشاهد الجماعة الثالثة، ومنهم، العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وأبا ذر الغفاري، والمقداد، وعمار بن ياسر،

والفضل بن العباس، جلهم احتجوا بالعقيدة الالهية بخلافة ووراثة آل محمد والمتمثلة بعلي بن أبي طالب النبوة والامامة، وليس حق لغيرهم لانها غير قابلة للاجتهااد.

عند استخدامنا طريقة البحث للعالم الاجتماعي دريدا المبنية على تفكيك النص ثم تركيبه نجد ان كل هذه الشواهد التاريخية تؤكد لا على أحقية علي بالخلافة بقدر ما تؤكد على عقيدة الاسلام المبنية على انتقال وراثة النبوة من بني اسرائيل الى بني محمد أي آل محمد. والشخص الشرعي لهذه الوراثة هو علي بن أبي طالب. من هنا بدأت كلمة الشيعة وهي التشيع لعقيدة الاسلام وهي التشيع لآل البيت الورثة الحقيقيين للرسالة السماوية وعلى رأسهم علي بن أبي طالب. أما السنة، فهم الذين اجتهدوا في هذه العقيدة تحت حجج مختلفة. وعندما ندرس في علم الاجتماع الذاكرة الجماعية وفي علم النفس اللا وعي الجماعي وباستخدام الجينالوجيا، نجد أن نداء الشهادة والاذان هو خير تعبير لهذه الأحداث التاريخية. فأشهد أن لا اله الا الله، هو خطاب موجه اساسا الى المشركين العرب الذين رفضوا التوحيد الخالص. وأن أشهد أن محمدا رسول الله، هو خطاب موجهها أساسا الى اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بنبوة محمد. واما أشهد أن عليا ولي الله، هو خطاب موجه اساسا الى المهاجرين والأنصار الذين رفضوا عقيدة وراثة النبوة لآل محمد.

التحنف هو التشيع، الحنيفية هي الشيعية، آل ابراهيم حنيفا هي آل محمد شيعيا:

عند ذكر الحنيفية والشيعية، هي أسماء تدعو الى التأمل أحيانا، وتثير بعض المفارقات في بعض الأحيان. وبصفة عامة وكمدخل لهذا المجال يمكن القول بأن عالم الأسماء هو عالم قائم بذاته ولكل اسم معنى وقصة تطول أو تقصر حسب ظروف الاسم وشهرة الشخصيات المرتبطة به.

ولهذا استخدمنا في هذا المبحث منهج علم الدلالة أو ما يسمى في الغرب بالسيمانطيقا لدراسة دلالية المصطلح الحنيفية وكيفية تحويلها الى الشيعية.

كان علم الدلالة مرتبطا بعلم البلاغة التقليدية في الثقافة الغربية القديمة. ولقد جعل لهذا العلم الباحث الفرنسي ميشيل بريال في عام ١٨٩٧ كيانا مستقلا وسماه بالسيمانتك أي العلم الذي يدرس المعنى (٤٤). هذا العلم يهتم بدراسة تطور معاني الكلمات والرموز سواء أكان مفردا أو مركبا، كما يعني بدراسة الأسباب المؤدية الى تغييرها، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية، تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيائها منه، وهي تتطور بتطوره، وتنحط بانحطاطه (انظر د. رمضان عبد النواب: التطور اللغوي ومظاهره وعلله وقوانينه).

وبما اللغة ظاهرة اجتماعية، فانها كالظواهر الاجتماعية الأخرى، عرضه للتطور المطرد في مختلف عناصرها. والتطور الدلالي هو أحد جوانب التطور اللغوي، وميدانه الكلمات ومعانيها، ومعاني الكلمات مثل كلمة الحنيفية أو الشيعية لا تستقر على حال، بل هي في تغير مستمر لا يتوقف.

ويقع التغيير في المعنى اما عندما يضاف مولود جديد الى كلمة قديمة أو عندما تضاف كلمة جديدة الى مولود قديم.

ان من أهم العوامل التي تؤدي الى تطور الدلالة هي الحاجة الى كلمة جديدة تعبر عن معنى جديد لم يكن معروفا من قبل. مثال في القرآن الكريم في قوله تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ...) سورة الأنفال: ٤٦. قال ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسير الآية، في مواطن التنازع فنجدهم يقولون، فلان فشل في الدراسة، وفلان فشل في الاختبار. وهكذا كلمة الطهارة، وأصبحت تعني الختان. وكلمة الحريم بعد ان كانت تعني (الذي حرم مسه فلا يذني منه) أصبحت تعني النساء. وكذلك كلمة حرامي، هي في الاصل نسبة الى الحرام، ثم تخصصت دلالتها واستعملت بمعنى اللص في القرن السابع الهجري. وهذا الذي حدث لكلمة حنيف أو الحنيفية.

تعرف كلمة حنيف في لسان العرب والصحاح والقاموس المحيط، بانها الميل. اما الميل عن الخط الصحيح، أو الميل نحو الخط الصحيح. واذا كانت القدمان متقوستان أي تميل الواحدة نحو الأخرى، يقولون أنه أحنف القدمين. ومنهم الشاعر الأحنف ابن القيس واسمه صخر ابن القيس.

كلمة الحنيف قد تخصصت دلالتها واستعملت استعارة لمة من الناس تميزوا برياسة الزهد وترك عبادة الأصنام. أي لمة مالت عن ديانة العرب آنذاك وهي الشرك فسموهم الحنفاء قبل الاسلام ومنهم، ورقة ابن نوفل، وأميه ابن أبي الصلت، وعبيد الله ابن جحش، وعثمان ابن الحويرث، وزيد ابن عمر ابن نفيل، والقس بن ساعدة الأيادي وعبد المطلب جد الرسول(ص). (٤٦).

الحنيفية في العقيدة الاسلامية ليست دينا مستقلا بل هي لمة أي شريعة أو ممارسة لعبادة خاصة. أما عند ظهور الاسلام كدين التوحيد، قد كشف عن هوية الحنيفية. كلمة حنيفا وردت في عشرة مواضع في القرآن، ولفظة حنفاء في موضعين. المفاجئة القرآنية التي فاجأ بها العرب المشركون في مكة بأن محمدا(ص) رسول الله وانه على لمة ابراهيم حنيفا مسلما. هذا يعني أن التطور الدلالي لكلمة حنيف بانها المسلم. وعند هجرة الرسول(ص) الى مكة أعطى القرآن معنى دلاليا أعمقا لكلمة الحنيفية، أي لا يهودي ولا نصراني. اما كلمة الشيعة قد أصابها أيضا تطور دلالي. كلمة الشيعة تعرف في لسان العرب، القوم الذين يجتمعون على أمر، او الذين يتبع بعضهم بعضا وليس كلهم متفقين. قال الله عز وجل: (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) سورة الأنعام: ١٥٩؛ أي كل فرقة تكفر الفرقة المخالفة. المعنى الدلالي لكلمة الشيعة تطور وأصبح يطلق حسب الأزهرى على القوم الذين يهون هوى عترة النبي(ص) ويوالونهم. ثم تخصصت دلالتها واستعملت بمعنى شيعة علي(ع).أي أصبح الأسم استعارة لمذهب، ثم نشأ منها وتطور مفهوم دلالي آخر عند أعداء الشيعة وهو الروافض..

فالرافضة اليوم تعني دلالتها الشيعة وهم الذين رفضوا شرعية خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل. فكلمة الرافضة هي مرادفة لكلمة الشيعة.

علماء اللغة المعاصرون استطاعوا أن يحصروا التطور الدلالي في مظاهر رئيسية تصدق على اللغات جميعاً، وبحسب تقسيم منطقي اتبعوه؛ فوجدوا المعنى القديم للغة أما أن يكون أضيق من المعنى الجديد وهذا حصل لكلمة حنيف الميل حيث أصبحت تدل على ملة رفضت الشرك ومن ثم توسعت الى أن أصبحت مساوية الى الاسلام؛ وكذلك كلمة الشيعة من اتباع الرجل وانصاره الى مذهب. أو بالعكس المعنى القديم يكون أوسع من المعنى الجديد وهذا حصل من قبل أعداء الشيعة حيث اختزلوا المفهوم الدلالي للكلمة على رفضهم لشرعية خلافة أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وسموه الرافضة.

تحويل الحنفية الى الشيعية حدث بعد وفاة الرسول (ص) ، أي في حادث السقيفة. الحنفية توسعت دلالتها في السنة التاسعة للدعوة الاسلامية في مكة وأصبحت تعني الاسلام، واستمر هذا المعنى الدلالي حتى السنة الثانية للهجرة وتعمق المعنى الدلالي لكلمة الحنفية بانها لا يهودية ولا نصرانية. بعد حادث السقيفة تطورت الحنفية واستبدلت بكلمة الشيعة. الحنفية هي الميل نحو آل ابراهيم لا يهودي ولا نصراني، والشيعية هي الميل نحو آل محمد لا المهاجرون ولا الأنصار الذين رفضوا وراثه آل محمد للنبوّة والامامة. كانت العرب في الجاهلية على ارث من ارث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم. فلما جاء الاسلام حالت الأحوال، ونسخت الديانات، وابطلت أمور ونقلت من لغة ألقاظ عن مواضع الى مواضع أخرى بزيادات زيدت، وشرائع شرعت. وما جاء في الشرع (الصلاة) وأصله في لغتهم (الدعاء)، وكذلك (الصيام) وأصله عندهم (الامساك)، ثم (الحج) كان عندهم (القصد). هذه الألفاظ أصابها التطور الدلالي نتيجة التطور الاجتماعي الثقافي الذي طرأ على المجتمع العربي بعد مجيء الاسلام.

فالذي حصل للكلمتين الحنفية والشيعية، ولآل ابراهيم وآل محمد ، تطور دلالي ليس أوسع ولا أضيق بل مساو له. وهذا نادر ما يحصل في **السيمانتيك**. الحنفية والشيعية ميزتهما الميل. الميل لآل ابراهيم لا يهودي ولا نصراني ولآل محمد لا للمهاجرين ولا للأنصار؛ وكذلك ميزتهما رياضة الزهد والذي تطور المعنى الدلالي لهذه الكلمة الى الصوفية والتي ارتبطت في المراحل المبكرة ارتباطاً وثيقاً بغاية عظيمة من غايات الدين الحنيف وهو الزهد في هذه الدنيا وزخارفها. والمتصوفة يعتبرون الزهد مقاما من مقامات التصوف.. (٤٧).

السؤال الذي يحتاج الى بحث دقيق في علم الدلالة وهو: هل المعنى الدلالي للشيعة قد تطور الى الصوفية؟

الهوامش والمصادر:

1. Friederich Nietzsche, comment pour finir le monde vrai, paris 2000
نيتشة: فردريك نيتشة (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف وناقد وشاعر وكاتب وعالم لغوي ألماني درس الأخلاق دراسة تاريخية مفصلة.
2. Heidegger, Nietzsche, paris 1971
٣. فوكو: ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤)، فيلسوف فرنسي. أعماله تركزت حول تأريخ الفلسفة.
4. Deleuze G. , pensée nomades, paris 1973.
دولوز جيل (١٩٢٥-١٩٩٥) فيلسوف فرنسي ومؤرخ وكاتبه العديد من الكتبي الفلسفة وعلم الاجتماع.
5. Derrida , Histoire du mensonge, paris 2012.
دريدا: جاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤) فيلسوف وناقد فرنسي صاحب نظرية التفكيك.
6. Jean Luc Nancy, Le philosophe boiteux, paris 2014.
نانسي: جان لوك (١٩٤٠-) فيلسوف فرنسي أعماله تركزت حول علم المنطق.
7. Joachim WACH, Experience Religieuse et Sociologie des Religions
P. 108 , trad. Franc. P. 98. CNRS, Paris
٨. محمد ابن ادريس الشافعي: الرسالة، المكتبة العلمية ص ١٤.
٩. ابن حزم الظاهري: الأحكام في أصول الأحكام، ج ٣ ص ٣٩١؛ وأبو حامد الغزالي: المستصفى من علم الأصول، دار الفكر، ج ١ ص ١٤.
١٠. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، المكتبة العصرية، صيدا ٢٠٠٠م، ص ٣٨٨.
11. Cecil Mallaby FIRTH, Egyptologie, The Teti pyramid cemeteries 2vol., le caire, 1926.
١٢. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ١٩٨٢م، ص ٦٨.
١٣. بدر الدين الشركسي: البرهان في علوم القرآن، دار الجبل بيروت، ج ٢ ص ١٧٥.
١٤. جلال الدين السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٤، ج ٢ ص ٢٢٥.
١٥. سيد قطب: د. أحمد نبوي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٢م ص ١٣.
16. Michel Foucault, Histoire de la folie à l'age classique, paris 1964, p. 309.
17. Edgar Habermas, l'Etat Nation à l'Epreuve de la mondialisation. Trad. 2012, p348.
18. Paul valery, la crise de l'esprit, paris 1919.
19. Karl Marx, et Freiderich Engles, manifeste du parti communiste, 1848.
٢٠. شمس الدين السخاوي نسبة الى سخا شمال مصر الشافعي وهو مؤرخ كبير من أعلام مؤرخي فترة المماليك.
٢١. أبو الفرج علي ابن الحسين ولد ٢٨٤ هجرية.
٢٢. السيد علي خان الشيرازي. ولد في ١٠٥٢ هجرية.
٢٣. السيد محسن أمين العاملي.
٢٤. الشيخ محمد حسن المظفر.

٢٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ج ٤ ص ٣٣٠.
٢٦. الذهبي: تهذيب التهذيب، ج ٢ ص ٢٣٩.
٢٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ج ٤ ص ٣٣٥.
٢٨. تفسير الطبري.
٢٩. تفسير الطبري.
٣٠. تفسير ابن كثير.
٣١. تفسير سيد قطب.
٣٢. تفسير الميزان للطباطبائي.
٣٣. تفسير الطبري.
٣٤. نهج البلاغة.
٣٥. الطبري: تأريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ٢٢٠.
٣٦. اليعقوبي: التأريخ، ج ٢ ص ١٠٢.
٣٧. اليعقوبي: التأريخ، ج ٢ ص ١٠٣.
٣٨. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١ ص ٤٨٢؛ الطبري: تأريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ٥٨٣.
٣٩. اليعقوبي: التأريخ، ج ٢ ص ١٨-٤٨.
٤٠. اليعقوبي: التاريخ، ج ٢ ص ١٠٤؛ ابن قتيبة: الامامة والسياسة، ج ١ ص ١٥.
٤١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ٥١.
٤٢. اليعقوبي: التأريخ، ج ٢ ص ١٤٠.
٤٣. المسعودي: مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥١.
44. Michel Breal , Homme dans la langue. ENS 2013, Lyon.
٤٥. أنظر د. رمضان عبد النواب: التطور اللغوي ومظاهره وعلله وقوانينه.
٤٦. سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٤٢-٢٤٤.
٤٧. اللمع: كتاب المقامات والأحوال، باب الزهد ص ٧٢.

Alginieloggio utilisant l'approche déductive dans l'interprétation des textes religieux

Mr. Abid Ali Sfyeh

Professor and advised with the ministry of state education in France

Résumé:

La question de l'interprétation des textes sacrés est le plus souvent résumée dans la thèse « tout est interprétation ». Ce passage doit être contextualisé pour savoir de quel type d'interprétation il s'agit.

L'interprétation doit s'attacher à découvrir le vrai sens et non à révéler une vérité. Le Coran à une apparence extérieure et une profondeur caché. Un sens exotérique « tafsir » et un sens ésotérique « ta'wil ». Pour découvrir se sens caché, j'ai utilisé le moyen de recherche la Généalogie.

La Généalogie signifie « liste des membres d'une famille établissant une filiation ». Mais ici signifie de trouver la face cachée du texte. La Généalogie ne s'arrete pas à problème de trouver des origines à des valeur morale, mais de trouver avant la manifestation.

J'ai pris comme échantillon ou un exemple « la naissance de Chiisme » puis j'ai appliqué la Généalogie pour étudier cet événement historique si complexe, et j'ai obtenu des résultats originales.

Alginieloggio using deductive approach in the interpretation of religious texts

Mr. Abid Ali Sfyeh

Professor and advised with the ministry of state education in France

Abstract:

The question of the interpretation of the sacred texts is generally summarized in the thesis "all is interpretation". This passage must be contextualized to know of which type of interpretation it acts.

interpretation must attempt to discover the true direction and not to reveal a truth. the coran with an external appearance and a depth hidden. A direction exoteric " to tafsir " and an esoteric direction " ta' wil ". To discover hidden direction, I used the means of research the Genealogy.

The Genealogy means " list of the member of a family establishing a filiation ". May

h here means to find the face hidden of the text. The Genealogy does not stop with

p problem finding origins with values morals, but finding before the demonstration.

I took as sample or a " example; birth of Shiism " , then I applied the Genealogy to

s study this so complex historical event, and I got results original.